القُرّاء أفضل حين يعشقون

ل هناك فرق في العشق حين يكون العاشق قارئًا أو غير قارئ؟

لا يبدو أن التعميم مقبول هنا في هذا الموضوع لأن الارتباط بين القراءة من جهة ومناسيب الحب والعشق من جهة أخرى غير مؤكد وغير علمي؛ لكون العشق يتضمن عشرات العوامل والمتغيرات التي ليست القراءة إلا واحدًا منها.

لكن يمكن القول إنه إذا افترضنا أننا ثبتنا جميع المتغيرات، وبقيت لدينا القراءة متغيرًا وحيدًا في معادلة العشق، فهنا يمكن أن يحدث الفرق في العشق بين القارئ وغير القارئ.

فحسب بعض الدراسات العلمية التي تتحدث عن تأثير قراءة الروايات في قرائها يصبح هؤلاء أكثر تعاطفًا مع غيرهم، وذلك نتيجة قراءتهم ومعايشتهم لأحداث روايات كثيرة حتى يكادون بمرور الوقت يصبحون كمن عاشها حقًّا.

تقول الكاتبة كارولين هنتز في مقال ورد في كتاب (الحياة التي لم نعشها) للكاتبة ماريا بوبوفا وآخرون: ليس من المفاجئ أنّ الذين يقرؤون هم الأفضلون؛ لأنهم اختبروا خلاصة حياة شخص آخر. لقد تعلموا كيف يتركون أجسادهم ويرون العالم من زاوية شخص آخر. وهذه الخبرة من تلك الشخصيات التي قرؤوا عنها تفيدهم في كثير من الفرص المستقبلية، فالحكمة المتراكمة من تلك الرحلات العقلية في حياة أشخاص آخرين لا تقدّر بثمن (ص54). لقد اختبروا أشياء لن تفهمها، وعايشوا موت أشخاص لن تعرفهم أبدًا. لقد اختبروا حياة المرأة، وحياة الرجل، واختبروا معاناة الآخرين، وتلك الحكمة التي اكتسبوها تتجاوز سنوات عمرهم (ص54).

تضيف الكاتبة (ص55): إذا كنت تبحث عن شخص ليكون شريك حياتك، فابحث عنه بين الذين يحملون معهم الكتب. إنهم لن يكلّموك كلامًا عابرًا بل أحاديث سحرية، وسوف يكونون فضوليين وحنونين، وستعرف ذلك أثناء الدقائق الأولى معهم، لن يجيبوك عن الأسئلة بطريقة الخطاب، بل سوف يركزون على عمق الأفكار والنظريات، وسوف يُمتعونك باستخدامهم للكلمات وللأفكار.

لكن قد يقول قائل إن في ذلك مبالغة في مستوى الرومانسية لدى قراء الروايات؛ وهو ما قد يكون صحيحًا بالكامل في حال تعددت وتكاثرت العوامل والمتغيرات في الموضوع. حينها لا تكون القراءة وحدها هي ما يحدد مستوى ونوع العلاقة والتعامل مع العاشق القارئ. لكننا نقول – وهو أيضًا في حدوده – إنه في حال تساوي جميع العوامل والمتغيرات بين شخصين وبقاء الفارق بين شخص قارئ وغير قارئ فإنه قد يكون من الحكمة الانحياز إلى عشق القارئ على عشق غيره (ونكرر مع تساوي العوامل والمتغيرات الأخرى).

لكن يجب الانتباه هنا أيضًا إلى احتمال تغير منسوب العشق بعد الزواج لعدة أسباب، ليس أبسطها أن العلاقة بين المحبوبَين تختلف عنها بين الزوجين، بمستويات ومسافات تتفاوت من شخص لآخر ومن حالة لأخرى. وليس بالضرورة أن تتغير إلى الأدنى بل ربما إلى الأعمق في بعض الأحيان، وفي حالة القارئ - أو القارئة - فإن العمق يكون أكبر بكثير.

فحين عَشِق مجنون ليلى – قيس بن الملوّح – عبّر عن ذلك بكلمات ألهبت المشاعر في وقتها، ولا تزال تفعل ذلك في أجيال بعد أجيال بعد موت العاشقَين. كلمات أصبحت تعابير يتغنى بها العاشقون بعده لكونها قطعًا أدبية خالدة، مقابل عاشق غير قارئ عبّر عن حبه لمحبوبته بكلمات مباشرة؛ كأن يقول: أحبك، أو لا أستطيع العيش بدونك، أو عيونك حلوة وشعرك جميل وطلعتك بهيّة.

فالعاشق القارئ لا يكتفي من الحديث بالمباشر منه، بل يحوله إلى فن وأدب خالدين كذاكرة أدبية لا تزعزعها الأحداث، ولا ينال منها مرور الزمن. ونؤكد هنا أنه قد يكون الحب من غير القارئ أكبر، لكنه حين يأتي من قارئ فإنه لا يبقى حبًّا أبكم بل قويًّا يترك من الأصداء داخل قلب المحبوبة ما يصعب نسيانه، وكناقوس يدق في عالم النسيان معلنًا أن الحب خالد وإن ذهب الجمال الشكلي، وباقٍ ككلمات تبقى مسطرةً على كتاب الزمن لا تمحوها الأيام.

وأخيرًا فإنه لا يمكن التعميم والجزم بضرس قاطع في جميع الحالات بأن الحب أفضل حين يأتي من قارئ؛ لكنه يكون خالدًا ومخلّدًا على مر الزمن ويأخذ بألباب المحب من الطرف الآخر، متجذرًا داخل نفوسهم لا تزعزعه الأحداث الطارئة ولا الظروف الخارجية.